المدخَل إلى الحياة الهانئة المستقرّة

«الترغيبُ في حَياةِ الحُبِّ والمودَّة في الزواج..»

قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

البحث الأول:

الزواج في الإسلام إخلاص وحب ومودة ووفاء

الزواج في حكم القرآن ليس وسيلة لحفظ النوع الإنساني فحسب، بل هو فوق ذلك وسيلة للاطمئنان النفسي والهدوء القلبي والسكن الوجداني، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

والقرآن بهذا النص يضع أسس الحياة العاطفية الهانئة الهادئة: فالزوجة ملاذ للزوج يأوي إليها بعد جهاده اليومي في سبيل تحصيل لقمة العيش، ويركن إلى مؤنسته بعد كدّه وجهده، وسعيه ودأبه.. يلقي في نهاية مطافه بمتاعبه إلى هذا الملاذ... إلى زوجته التي ينبغي أن تتلقاه فرحة مرحة، طلقة الوجه ضاحكة الأسارير.. يجد منها آنئذٍ أذناً صاغية وقلباً حانياً وحديثاً رقيقاً حلواً يخفف عنه.. ويذهب ما به.

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

ومن هذا ما يروى عن عمر بن الخطاب ونحن إذ نثبت هنا هذه المحاورة التالية نربأ بعمر - وهو الخليفة العادل والمسلم الكامل ذو الإرادة المتينة والعزم الحديدي الذي ما سلك طريقاً إلا وسلك الشيطان غيره - نربأ أن تتطاول عليه امرأته، ولكن نوردها لما تحمل من اعتراف بهذه العلاقة الزوجية الروحية، وذلك الارتباط المكين المتين، وهذا السكن القلبي -.

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ﷺ يشكو إليه خُلق زوجته، فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها - وهو ساكت - ورآه عمر منصرفاً فناداه: ما حاجتك يا أخي؟ قال: جئت أشكو إليك استطالة زوجتي عليّ، فسمعت زوجتك تستطيل عليك كذلك!! فأجاب عمر: تحمَّلتها لحقوق لها عليّ؛ فإنها طباخة لطعامي خبازة لخبزي غسالة لثيابي، مرضعة لولدي وليس ذلك بواجب عليها، ويسكن قلبي بها عن الحرام - قال الرجل: وكذلك زوجتي، فقال عمر له: تحمّلها إذن يا أخي فإنما هي مدة يسيرة والعهد قريب.

فالزوجة سكن لزوجها يسكن إليها ليروي ظمأه الجنسي في ظلال من الحب والمودة والطهارة: فيسكن القلب عن الحرام وتسكت الجوارح عن التردّي في حمأة الرذيلة والانزلاق في مهاوي الخطيئة.

ولكي يتحقق في نطاق الأسرة ذلك السكن القلبي وهذا الهدوء الروحي أحاط الإسلام الأسرة بسياج تربوي ففرض حقوقاً للزوجة وحدوداً للزوج. ومجالاً يسير فيه كل منهما لا يتعدى واجباته ولا يتجاوز اختصاصه؛ لتسير سفينة حياتهما سعيدة في المحيط الزوجي، بعيدة عن أعاصير الخلاف وتيارات النزاع وأنواء الشقاق.

لكل واحد منهما حق، وعليه في نظير ذلك الحق واجب يؤديه والتزام يفي به كل شريك نحو شريكه، إذا دعا الزوج امرأته إلى فراشه فأبت باءت بسخط الله حتى يرضى عنها زوجها. والرسول ﷺ يقول: **«إذا دَعا الرجل زوجته لحاجته فلتأتِهِ وإن كانت على التّنّور»**[1] **«والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى**

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ج ٨/ ٣٩٨، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٤/ ٢٩٦، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات.

فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها» وجزاء الرضا الزوجي كما روته أم سلمة زوجة رسول الله ﷺ: **«أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة»**(١).

جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك: هذا الجهاد كتبه الله على الرجال فإن يصيبوا أجروا وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون. ونحن معشر النساء نقوم عليهم فما لنا من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أبلغي من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافها بحقه يعدل ذلك، وقليل منكن يفعله»**(٢).

والإسلام يكرّم الزوج **«لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها»**. لأن الإسلام يوكل رئاسة الأسرة والقوامة على شؤونها وتدبير أمورها للرجل؛ فهو أقدر على حمل التَبِعَات وأقوى على حل المشكلات وأصلب عوداً وأمتن بناء من المرأة.. منحه الله مع بسطة الجسم كمالاً في العقل ونضوجاً في الرأي.. أما المرأة فبحكم طبيعتها وتكوينها تكون أدق جسماً وأرق قلباً.. تغلب عليها العاطفة... تنتابها حالات من الضعف البدني يسقط عنها إلى حين بعض العبادات؛ فلا تكلّف بالصلاة ولا بالصيام عند الطمث، وعند الولادة.

لهذه المميزات اختصّ الله الرجال برئاسة الأسرة.. ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾(٣) كما اختصهم بالإمامة والولاية والفتوى والجهاد وزيادة السهم في الميراث ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم (وسنده ضعيف) انظر الضعيفة للشيخ ناصر ١٤٢٦، وضعيف الجامع الصغير رقم ٢٢٢٧.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٤/ ٣٠٥، وقال: رواه البزار، وفيه رد شديد بن كريب وهو ضعيف.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

ولقد قرر الرسول ﷺ أن المرأة الصالحة خير متاع في الدنيا عندما قال: «**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**»[(١)] وجعلها أكبر مكسب يفوز به المرء بعد تقواه لله: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة: إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرّته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله**»[(٢)].

لم يجعل الرسول ﷺ صلاحها بوفرة مالها، ولا بفرط جمالها، بل جعل مقياس صلاحها في طاعتها لزوجها وإدخال السرور على نفسه؛ فلا تقع عينه منها على قبيح ولا يشم منها إلا أطيب ريح.. وفي عفَّتها إذا ما غاب بعلها عنها أو حالت كَثْرَةُ أعماله وشواغله دون اللقاء الجنسي. وكثيرات ينتهزن فرصة غياب الخليل وزوال رقابته فيسلكن مسلكاً لا يرضاه، لا وازع عندهن من ضمير أو دين، ولا رادع من خُلق.. وإذا مات الوازع وانعدمت الرقابة ظهرت الفتنة وبرزت الخطيئة.

سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو يتعسس ليلاً مستطلعاً أحوال الرعية، سمع امرأة من خلف خبائها تقول:

ألاَ طال هذا الليل وازورّ جانبُه وليس إلى جنبي خليل أُلاَعبه
فوالله لولا الله تُخْشَى عواقبُهْ لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربِّي والحياء يعفُّني وإكرام بعلي أن تُنال مراتبه

وقد علم منها أنها زوجة أحد الجنود المسلمين غاب عنها زوجها في ميدان القتال أشهراً عدّة وتركها وحيدة إلا من طهرها وعفتها وخشيتها لربها، فأمر ألا يمكث الجندي في الميدان إلا فترة معلومة يعود بعدها إلى أهله أياماً يؤدي لهم فيها حقهم، ثم يرجع إلى ميدان المناجزة والطِّعان ليؤدي حق الدِّين. والقرآن

(١) ذكره في مشكاة المصابيح برقم ٣٠٨٣، وعزاه لمسلم، بلفظ: «**الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة**».

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه وابن ماجه، بسند ضعيف إلى كشف الخفاء ج ٢/ ٢٣٦، وهو في مشكاة المصابيح ج ٢/ ٩٣٠، برقم ٣٠٩٥، وعزاه لابن ماجه، ورقمه عنده ١٨٥٧، قال في الزوائد: في إسناده علي بن يزيد، قال البخاري: منكر الحديث.

- من قبل ذلك كله - قد بين نعوت المرأة الصالحة عندما قال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[1]. فالصالحات من النساء في نظر الفرقان: خاضعات مطيعات لأزواجهن مؤديات حقوقهم حافظات للعلاقة الزوجية من الإثم والدنس. أمينات على ما يقع بينهم وبينهن في الخلو من حديث أو نجوى، ملتزمات حدود الشرع التي تكفل صيانة ذلك الارتباط المقدَّس. ويكنّ لأزواجهن - وهم غائبون عنهن - أشد إخلاصاً وأعظم وفاء.

وبعد أن كشفت هذه الآية القرآنية صفات القانتات المطيعات مضت تبين حال اللائي خرجن عن الطاعة ورفعن راية العصيان وقاومن الأوامر، ووضعت علاج النشوز والمخالفة؛ فجعلت الحرمان الجنسي والهجر في المضاجع عاملاً من عوامل إصلاح الزوجة وتأديبها، وجعلته في المرتبة الثانية بعد الوعظ بالقول اللّين التي يليها أخيراً العقاب البدني، والقرآن بذلك العلاج المتدرج المترابط يضع أول لبنة من لبنات التحليل النفسي، فقد كشف لنا النفوس البشرية وأبان لنا اختلاف الأمزجة وتباين الطباع وأن ما يلائم طائفة منها قد لا يلائم الثانية، وأن ما يتعارض مع هذه قد يتفق مع تلك. فلم يصف لها علاجاً واحداً بل أعطى لكل داء ما يلائمه من دواء ولكل نفس ما يتفق وطبيعتها. فبعض نفسيات النساء ينفع في زجرها كلمة أو قولة أو نظرة فما تلبث أن ترجع وتذعن. ونفسيات ثانية لا يجدي معها رقيق القول ولا لين الكلام، وهذه شرَّع لها عقاب نفسي - وهو المقاطعة الجنسية - وهل هناك أشد إيلاماً لنفس الأنثى من هجر زوجها لمضجعها؟ ! وكم من ظنون تنتابها آنئذ؟ وكم من هواجس تتلقفها وتتقاذفها؟.

هل ضعفت فتنتها بحيث لم تؤثر على رجلها؟ هل قلَّت أسلحتها الأنثوية من إغراء وأنوثة وحيوية؟ وهل للأنثى بضاعة غير هذه في سوق الزوجية؟ وهل تملك من فقدت أسلحتها - أو تخيَّلت أن تجارتها نفقت وبارت - إلا الخضوع والاستسلام؟ وهناك نوع تحجّرت عاطفتها وتبلَّدَت مشاعرها فلا يُجدي معها فيه هذا العقاب النفسي.. فيكون عقابها أشدَّ من ذلك.

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

البحث الثاني:

الزواج سُنّة كونية من سنن الحياة [١]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[٢].

إذا بلغ الشاب مبلغ الرجال، ونازعته نفسه إلى الزواج، وكان في ميسرة تتيح له أن ينفق على نفسه وعلى زوجه فليبادر بالزواج... وفي هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب: من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج.. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»[٣].

قال في المصباح المنير: «البَاءَةُ هو الموضع الذي تبوء إليه الإبل، ثم جعل عبارة عن المنزل، ثم كنى به عن الجماع».

أي أن رسول الله ﷺ يأمر الشباب أن يبادر كل منهم إلى الزواج متى أحس ثورة الميل الغريزي في نفسه إلى المرأة، ومتى وجد الكفاية المالية التي تتيح أن يكون له منزل وزوجة ينفق عليها.

وذلك من أخص خصائص الرجل الشريف، وأخص خصائص المجتمع الكريم... وقد رمتنا حضارة الغرب - فيما رمتنا به - بضرب من الحرية، سموه الحرية الشخصية يتيح للمرء - مع قدرته المالية - أن يظل بلا زواج، اكتفاء بما يجده ميسراً لقضاء مآربه الجنسية.. وهذا ضرب من الصعلكة والتشرد الجنسي؛ يلجأ إليه بعض الشباب تنمية للثروة، وفراراً من تكاليف الزواج، ومحافظة على مستوى من الطعام والشراب واللباس، لا يريد أن يضحي به إذا صارت له زوجة وأولاد... فإذا صرفنا النظر عن حكم الدين على هذه الصعلكة

---

(١) المرأة بين البيت والمجتمع: للبهي الخولي، ص: (١٨-٢٠) ط. دار الفتح - بيروت.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٨.

(٣) هذا الحديث في صحيح البخاري ج ٧/ ٣، وصحيح مسلم ج١/ ٢، والنسائي ج ٤/ ١٦٩ و١٧١، وأحمد في مسنده ج ١/ ٣٨٧، ٤٢٤.

الوضيعة، واستفتينا العقل وفطرة المجتمع ألفينا تلك الأنانية تقوم على إعزاز المادة وإهدار المثل الروحِيّة، فإذا أجاز المجتمع لأفراده أن تكون الرغبات المادية أعز من مقدسات الفضائل، وأن المال وما إليه من شهوات البدن أفضل من معاني الشرف وصيانة العرض، وما إليها من المثل الفاضلة؛ فأي خير يرجى أن يكون عليه هذا المجتمع؟

أي خير يرجى لدى أفراده بعضهم لبعض، وقد اتخذ كل منهم أنانيته إلٰهه المعبود، ومثله الأعلى؟.

وأي خير يرجى منهم لوطنهم، إذا أوهنهم الترف، وأضعفتهم الشهوات، وأسلمهم الضعف إلى عبادة الحياة الدنيا، والتشبث بها؟ أي خير يرجى لوطنهم حينئذ إذا دهمهم عدو جبار إلا أن ينخلع اللب من أول صدمة، وينهار القوم من أول ضربة، ويركعوا تحت أقدام عدوهم مستسلمين؟... وما استسلام فرنسا - أم الشهوات والحريات الفردية - وركوعها لغزاة الألمان في الحرب الأخيرة بمجهول لأحد، حتى قال لهم مرشالهم الكبير «بيتان» غداة الاستسلام: «زنوا خطاياكم فهي ثقيلة في الميزان، إنكم لم تريدوا أطفالاً، وهجرتم حياة الأسرة، ونبذتم الفضيلة، وكل المثل الروحية، وانطلقتم إلى الشهوات تطلبونها في كل مكان، فانظروا إلى أي مصير قادتكم الشهوات...».

فأنت ترى أن فطرة المجتمع تسير تحت حكم الإسلام الذي يأمر بالزواج، ويرى الفضائل، ويكره أن تشيع الفاحشة في الناس.

ومن المؤسف أن ذلك النهج الوضيع آخذ في التفشي بيننا، حتى لترى الرجل قد جاوز الأربعين أو الخمسين دون أن يتزوج، ولا يجد في نفسه خلجة حياء ينكسر بها أمام الناس مما يرتكب في حياته الخاصة من دنس... وأدهى من ذلك أنه لا يجد في معاملة الناس له ما يشعره بالازدراء؛ بل يجد منهم ما يعاملون به أي رجل شريف، وذلك من سمات التحلل التي نراقبها في فزع وألم وإشفاق.

لهذا نرى العلّامة الإمام ابن حزم في فريق من علماء المسلمين يقرر أن الزواج فرض لازم للمسلم القادر، فمن تركه أو تثاقل عنه فهو آثم إثم من ترك فريضة من فرائض الإسلام... وفريق كبير من الأئمة والعلماء قالوا: إنه واجب؛ وفي ذلك يقول ﷺ: «**لا صرورة في الإسلام**»(١). والصرورة هو الرجل الذي أضرب عن الزواج، أو أمسك عن الحج، سمي بذلك لصرّه على نفقته، لأنه لم يخرجها، وقال ﷺ: «**من كان موسراً لأن يتزوج ثم لم يتزوج فليس مني**»(٢). أما غير القادر على نفقات الزوجة، فعليه الصيام - كما قال رسول الله ﷺ - فإن الصيام يكفكف من حدة طبعه وثورة غريزته.

البحث الثالث:

الزواج بين العبادة والفطرة(٣)

إن الناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين؛ وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة. ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجاً، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر، وجعلت في تلك الصلة سكناً للنفس والعصب، وراحة للجسم والقلب، واستقراراً للحياة والمعاش، وأنساً للأرواح والضمائر، واطمئناناً للرجل والمرأة على السواء. والتعبير القرآني اللطيف الرقيق يصور هذه العلاقات تصويراً موحياً، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار

(١) هو في سنن أبي داود برقم ١٧٢٩، وأحمد ج ١/ ٣١٢، وذكره الشيخ ناصر في الضعيفة برقم ٦٨٥.

(٢) ذكره الحافظ المنذري في الترغيب ج ٣/ ٤٣، وقال: رواه الطبراني بإسناد حسن، والبيهقي، وهو مرسل.

(٣) دستور الأسرة في ظلال القرآن: لأحمد فايز - نقلاً عن ظلال القرآن، ص: (٥٧-٦٠).

الحس: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

إنها حكمة الخالق في خلق كل الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر، ملبياً لحاجته الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية. بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار؛ ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودة والرحمة، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة تتمثل في جيل جديد...

فالمرأة من نفس الرجل ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾(٢)... فهن من أنفسكم، شطرٌ منكم، لا جنس أحط يتوارى من يُبشَّر به ويحزن. إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾(٣)...

فهي نفس واحدة في طبيعة تكوينها، وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى، وإنما هذا الاختلاف ليسكن الزوج إلى زوجه ويستريح إليها... وهذه هي نظرة الإسلام لحقيقة الإنسان ووظيفة الزوجية في تكوينه. وهي نظرة كاملة وصادقة جاء بها هذا الدين منذ أربعة عشر قرناً، يوم أن كانت الديانات المحرفة تعد المرأة أصل البلاء الإنساني، وتعتبرها لعنة ونجساً وفخاً للغواية تحذر منه تحذيراً شديداً، ويوم أن كانت الوثنيات - ولا تزال - تعدها من سقط المتاع أو على الأكثر خادماً أدنى مرتبة من الرجل ولا حساب له في ذاته على الإطلاق.

والأصل في التقاء الزوجين هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار. ليُظلّل السكون والأمن جو المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الزغب، وينتج فيه المحصول البشري الثمين. ويؤهل فيه الجيل الناشئ لحمل تراث التمدن البشري والإضافة إليه. ولم يجعل هذا الالتقاء لمجرد اللذة العابرة والنزوة العارضة، كما أنه لم يجعله شقاقاً ونزاعاً، وتعارضاً بين الاختصاصات والوظائف، أو

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

تكراراً للاختصاصات والوظائف كما تخبطت الجاهليات في القديم، وحين يتأمل الإنسان في نفسه، نفسه هذه التي لم يخلقها، والتي لا يعلم عن خلقها إلا ما يقصه الله عليه. وهي نفس واحدة ذات طبيعة واحدة وذات خصائص واحدة. خصائص تميزها عن بقية الخلائق، كما أنها تجمع كل أفرادها في إطار تلك الخصائص. فالنفس الإنسانية واحدة في جميع الملايين المنبثين في الأرض وفي جميع الأجيال وفي جميع البقاع. وزوجها كذلك منها ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

فالمرأة تلتقي مع الرجل في عموم الخصائص البشرية - رغم كل اختلاف في تفصيلات هذه الخصائص - مما يشي بوحدة التصميم الأساسي لهذا الكائن البشري. الذكر والأنثى، ووحدة الإرادة المبدعة لهذه النفس الواحدة بشقيها. والإسلام يحدد الطريقة التي يحب الله أن يجتمع عليها الرجال والنساء في مؤسسة الأسرة النظيفة، ويكشف عما في هذه الطريقة من تيسير على الناس وتخفيف، إلى جانب نظافتها وطهارتها. ويقرر القواعد التنظيمية التي تقوم عليها المؤسسة الأساسية، والحقوق والواجبات الملقاة على عاتق الطرفين المتعاقدين فيها.

إن العبادة... عبادة الله في الزواج، وعبادته في المباشرة والأنسال... عبادة الله في كل حركة وفي كل خطرة...

يقول الإمام الغزالي: (ومن بدائع ألطافه أن خلق من الماء بشراً، فجعله نسباً وصهراً، وسلّط على الخلق شهوة اضطرهم بها إلى الحراثة جبراً، واستبقى بها نسلهم إقهاراً وقسراً... وندب إلى النكاح وحث عليه استحباباً وأمراً... فإن النكاح معين على الدين ومهين للشياطين، وحصن دون عدو الله حصين، وسبب للتكثير الذي به مباهاة سيد المرسلين لسائر النبيين...» وقد رغب الله في النكاح وأمر به فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[1] وهذا أمر، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾[2] وهذا منع من العضل ونهي عنه.

(١) سورة النور، الآية: ٣٢. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٢.

وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾(١).

ومدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾(٢).

وقال ﷺ: «**النكاح سنّتي فمن رغب عن سنّتي فقد رغب عني**»(٣).

وقال ﷺ: «**من رغب عن سنّتي فليس مني**»(٤) متفق عليه. وقال ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(٥) متفق عليه.

وقال ﷺ: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»(٦) رواه الترمذي. وهذا أيضاً تعليل الترغيب لخوف الفساد.

- وقال ﷺ: «**ينقطع عمل ابن آدم إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له...**»(٧)، ولا يوصل إلى هذا إلا بالنكاح.

- وقال عمر رضي الله عنه: «لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور»، فبيّن أنّ الدِّين غير مانع منه وحصر المانع في أمرين مذمومين.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.
(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته ج ٢/ ١١٥١، رقم ٦٨٠٧، وعزاه لابن ماجه، وذكره في الصحيحة برقم ٢٣٨٣.
(٤) البخاري ج ٧/ ٢، ومسلم في النكاح ٥.
(٥) البخاري ج ٧/ ٣، ومسلم ج ١/ ٢.
(٦) صحيح سنن الترمذي: رقم ٨٦٦، للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني.
(٧) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ج ١/ ٢١٣، وفي صحيح مسلم «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث..**» صحيح الجامع الصغير رقم ٧٩٣.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا يتم نُسك الناسك حتى يتزوج. . .» والظاهر أنه أراد به أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج ولا يتم النسك إلا بفراغ القلب.

كان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله ﷺ يخدمه ويبيت عنده لحاجة إلى طرقته فقال ﷺ: «**ألا تتزوج؟**» فقال: يا رسول الله إني فقير لا شيء لي وأنقطع عن خدمتك فسكت. ثم عاد ثانياً فأعاد الجواب. ثم تفكر الصحابي وقال: والله رسول الله ﷺ أعلم بما يصلحني في دنياي وآخرتي وما يقربني إلى الله مني ولئن قال لي الثالثة لأفعلن: فقال له الثالثة: «**ألا تتزوج؟**» قال: فقلت: يا رسول الله زَوِّجْنِي، قال: «**اذهب إلى بني فلان فقل: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تزوجوني فتاتكم**»، قال: يا رسول الله لا شيء لي، فقال لأصحابه: «**اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب**» فجمعوا له فذهبوا به إلى القوم فأنكحوه فقال له: «**أَوْلِمْ**» وجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة» أخرجه أحمد بإسناد حسن[1]. وهذا التكرير يدل على فضل في نفس النكاح.

وحكي أن بعض العباد في الأمم السالفة فاق أهل زمانه في العبادة فذُكر لنبي زمانه حُسن عبادته فقال: نعم الرجل هو لولا أنه تارك لشيء من السنة، فاغتمّ العابد لما سمع ذلك فسأل النبي عن ذلك فقال: أنت تارك للتزويج، فقال: لست أحرمه ولكني فقير وأنا عيال على الناس، قال: أنا أزوجك ابنتي فزوجه النبي ابنته. فالنكاح سنة ماضية وخُلق من أخلاق الأنبياء. وللنكاح فوائد خمسة: الولد، وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وكثرة العشيرة، ومجاهدة النفس بالقيام بهنّ.

---

(١) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ج ٢/ ٢٣، أخرجه أحمد في حديث طويل، بإسناد حسن.

البحث الرابع:

فوائد النكاح ومزاياه[١]

الفائدة الأولى: الولد، وهو الأصل، وله وضع النكاح والمقصود إبقاء النسل... وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة... وفي التوصل إلى الولد قربة من أربعة أوجه هي الأصل فيه عند الأمن من غوائل الشهوة، وحتى لم يحب أحدهم أن يلقى الله عزباً.

الوجه الأول: فهو أدق الوجوه وأبعدها عن إفهام الجماهير وهو أحقها وأقواها عند ذوي البصائر النافذة في عجائب صنع الله تعالى وعظيم حكمه. وبيانه أن السيد إذا سلم إلى عبده البذر وآلات الحرث وهيأ له أرضاً مهيأة للحراثة وكان العبد به قادراً على الحراثة ووكل به من يتقاضاه عليها، فإن تكاسل وعطّل آلة الحرث وترك البذر ضائعاً حتى فسد ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقاً للمقت والعتاب من سيده. والله تعالى خلق الزوجين وخلق الذكر والأنثى وخلق النطفة في الفقار وهيأ لها في الأنثى عروقاً ومجاري، وخلق الرحم قراراً ومستودعاً للنطفة وسلط متقاضى الشهوة على كل واحد من الذكر والأنثى.

فهذه الأفعال والآلات تشهد بلسان ذلِق في الإعراب عن مواد خالقها، وتنادي أرباب الألباب بتعريف ما أعدت له.

هذا إن لم يصرح به الخالق تعالى على لسان رسول الله ﷺ بالمراد حيث قال: «**تناكحوا تكثروا**..»[٢] فكيف وقد صرح بالأمر وباح بالسر؟ فكل ممتنع عن النكاح معرض عن الحراثة مُضيع للبذار معطل لما خلق الله من الآلات المعدة، وجانٍ على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة... فالنكاح ساع في

---

(١) دستور الأسرة في ظلال القرآن ص ٦٠-٦٦، لأحمد فايز، نقلاً عن: في ظلال القرآن.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه برقم ١٠٣٩١، وتمامه «.. **فإنّي أباهي بكم**».

إتمام ما أحب الله تعالى تمامه والمعرض معطّل ومضيّعٌ لما كره الله ضياعه، فالممتنع عن النكاح قد جسم الوجود المستدام من لدن وجود آدم عليه السلام على نفسه فمات أبتر لا عقب له.

وقد تحركت في نفس زكريا عليه السلام، الشيخ الذي لم يوهب ذرية، تحركت تلك الرغبة الفطرية القوية في النفس البشرية، الرغبة في الذرية، في الامتداد في الخلق... الرغبة التي لا تموت في نفوس العباد الزهاد، الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ونذروها للهيكل. ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[1] وقال القرآن عنه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[2].

إنها الفطرة التي فطر الناس عليها، لحكمة عُلْيَا في امتداد الحياة وارتقائها.

الوجه الثاني: السعي في محبة رسول الله ﷺ ورضاه بتكثير ما به مباهاته، إذ قد صرح رسول الله ﷺ بذلك.

الوجه الثالث: أن يبقى بعده ولداً صالحاً يدعو له. وقد قال النبي: «**ينقطع عمل ابن آدم إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به**»[3] وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ قريب منه، والصلاح هو الغالب على أولاد ذوي الدين لاسيما إذا عزم على تربيته وحمله على الصلاح؛ وبالجملة دعاء المؤمن لأبويه مفيد براً كان أو فاجراً؛ فهو مثاب على دعواته وحسناته فإنه من كسبه وغير مؤاخذ بسيئاته، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾[4] أي ما نقصناهم من أعمالهم، وجعلنا أولادهم مزيداً في إحسانهم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

(٣) ذكره ابن عبد البر في التمهيد. ولفظ مسلم في صحيحه: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث..**» صحيح الجامع الصغير رقم ٧٩٣.

(٤) سورة الطور، الآية: ٢١.

الوجه الرابع: أن يموت الولد قبله فيكون له شفيعاً فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يأخذ بثوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك**» أخرجه مسلم. وقال ﷺ: «**يقال لهم: ادخلوا الجنَّةَ، فيقولون: حتى يدخل آباؤنا، فيقال: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم**» أخرجه النسائي وإسناده جيد.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة في المرأة التي قالت لرسول الله ﷺ: دفنت ثلاثة، فقال النبي ﷺ: «**لقد احتظَرْتِ بحظارٍ شديد من النار**»! وقال ﷺ: «**مَنْ ماتَ له ثلاثةٌ لم يبلغُوا الحِنْث، أدْخَلَه الله الجنَّةَ بفضل رحمته إياهم**» قيل: يا رسول الله: واثنان؟ قال: «**واثنان**» أخرجه أحمد والبخاري.

الفائدة الثانية: التحصن من الشيطان، وكسر التوقان ودفع غوائل الشهوة، وغضّ البصر، وحفظ الفرج وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**من نكح فقد حصّن نصف دينه فليتق الله في الشطر الآخر**»[(١)]. والولد هو المقصود بالفطرة والحكمة، والشهوة باعثة عليه.

والنكاح بسبب دفع غائلة الشهوة مهم في الدين، فإن الشهوة إذا غلبت ولم تقاومها قوة التقوى جرَّت إلى اقتحام الفواحش، وإليه أشار عليه الصلاة والسلام: «**إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»[(٢)]. وإن كان ملجماً بلجام التقوى فغايته أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة، فيغضّ البصر ويحفظ الفرج؛ فأما حفظ القلب عن الوساوس والفكر فلا يدخل تحت اختياره، بل لا تزال النفس تجاذبه وتحدثه بأمور الوقاع ولا يفتر عنه الشيطان الموسوس إليه في أكثر الأوقات، وقد يعرض له ذلك في أثناء الصلاة حتى يجري على خاطره من أمور الوقاع ما لو صرح به بين يدي أخس الخلق لاستحيى منه، والله مطلع على قلبه. والقلب في حق الله كاللسان في حق الخلق، ورأس الأمور للمريد في

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف المتقين ج ٥/ ٣٠٠، وهو في العلل المتناهية لابن الجوزي ج ٢/ ١٢٢، وفي مجمع الزوائد ج ٤/ ٢٥٢، بلفظ: «**من تزوج فقد استكمل نصف الإيمان**» وفي إسناده ضعف.

(٢) ابن ماجه في سننه برقم ١٩٦٧، والحاكم في مستدركه ج ٢/ ١٦٥، وضعفه الذهبي.

سلوك طريق الآخرة قلبه، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا يتم نسك الناسك إلا بالنكاح». والشهوة أقوى آلة الشيطان على بني آدم، وإليه أشار ﷺ بقوله: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الألباب منكن**» أخرجه مسلم.

وقال ﷺ في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من شرِّ سمعي وبصري وقلبي وشرّ مني**»(١). فما يستعيذ منه رسول الله ﷺ كيف يجوز التساهل فيه لغيره. فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلب، ولذلك «أمر رسول الله ﷺ كلّ مَنْ وقع نظره على امرأةٍ فتاقت إليها نفسه أن يُجامع أهله» أخرجه أحمد وإسناده جيد. لأن ذلك يدفع الوسواس عن النفس، فقد روى جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج. وقال ﷺ: «**إنّ المرأة إذا أقبلت بصورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها**» رواه مسلم والترمذي واللفظ له وقال حسن صحيح.

وقال عليه السلام: «**لا تدخلوا على المغيبات** - وهي التي غاب زوجها عنها - **فإن الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم**» «قلنا: ومنك؟» قال «**ومنّي، ولكن الله أعانني عليه فأسلم**»، رواه الترمذي ومسلم.

قال سفيان بن عيينة: «**فأسلم**» معناه فأسلم أنا منه، هذا معناه فإن الشيطان لا يُسلم.

الفائدة الثالثة: ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب وتقوية له على العبادة، فإن النفس ملول وهي عن الحق نفور لأنه على خلاف طبعها، فلو كلفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت وثابت، وإذا روّحت بالذات في بعض الأوقات قويت ونشطت، وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويروّح القلب، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾(٢) وقال علي رضي الله عنه: روحوا القلوب ساعة فإنها إذا أكرهت عميت.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم ٣٤٩٢، وأبو داود برقم ١٥٥٦، وأحمد ج ٣/ ٤٢٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لكل عامل شرّة، ولكل شرة فترة، فمن كان فترته إلى سنتي فقد اهتدى**» رواه أحمد والطبراني من حديث عبد الله بن عمر والترمذي نحو من هذا من حديث ابن هريرة وقال: حسن صحيح.

والشرّة: الجد والمكابرة بحدة وقوة، وذلك في ابتداء الإرادة، والفترة الوقوف للاستراحة.

الفائدة الرابعة: تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفّل بشغل المطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب المعيشة، فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش في منزله وحده، إذْ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاعت أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل؛ فالمرأة الصالحة المُصلحة للمنزل عون على الدِّين بهذه الطريق، واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرغك للآخرة، وإنما تفريغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً.

الفائدة الخامسة: مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهنّ والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيتهن لأولاده، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، والأهل والولد رعية، وفضل الرعاية عظيم. وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط، ولا من صبر على الأذى كمن رفّه نفسه وأراحها، فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة، وإن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى امرأته**» متّفق عليه. وقال ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو: تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه؟ قالوا: ما نعلم ذلك. قال: أنا أعلم. قالوا: فما هو؟ قال: رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياماً متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه، فعمله أفضل مما نحن فيه.

البحث الخامس:

المعاشرة الزوجية في ظل القرآن وتوجيهه(١)

إن القرآن الكريم حين يتناول بعض أحكام الزواج والمعاشرة يُشْعِر القلب البشري أنه يواجه قاعدة كبرى من قواعد المنهج الإلٰهي للحياة البشرية؛ وأصلاً كبيراً من أصول العقيدة التي ينبثق منها النظام الإسلامي. وأن هذا الأصل موصول بالله سبحانه مباشرة، موصول بإرادته وحكمته ومشيئته في الناس، ومنهجه لإقامة الحياة على النحو الذي قدّره وأراده لبني الإنسان. ومن ثم فهو موصول بغضبه ورضاه، وعقابه وثوابه، وموصول بالعقيدة وجوداً وعدماً في حقيقة الحال.

ومنذ اللحظة الأولى يشعر الإنسان بعظيم هذا الأمر وخطورته؛ كما يشعر أن كل صغيرة وكبيرة فيه تنال عناية الله ورقابته، وإن كل صغيرة وكبيرة فيه مقصودة كذلك قصداً لأمر عظيم في ميزان الله تعالى، وإن الله يتولى بذاته - سبحانه - تنظيم حياة هذا الكائن، والإشراف المباشر على تنشئة الأسرة المسلمة تنشئةً خاصة تحت عينه، وإعدادها - بهذه النشأة - للدور العظيم الذي قدّره لها في الوجود.

ولهذا كان للحياة الزوجية في القرآن العظيم ظلالها الوارفة، في رياض السعادة والمودة والمحبة.

في ظلال الحياة الزوجية:

يبدأ الإسلام بناء الأسرة في ضمائر الأفراد ووجدانهم؛ فهناك في أعماق الروح يغرس بذرة الحب، الحب الإنساني الخالص.. وينسم نسمة الرحمة ولكي يحقق الإسلام الحب والصفاء في النفوس والقلوب، فإنه يأخذ المسلمين

---

(١) دستور الأسرة في ظلال القرآن لأحمد فايز ص: ١٤١ فما بعدها - ط. مؤسسة الرسالة - بيروت.

بآداب نفسية وآداب اجتماعية تعين على هذه الغاية، وتمنع أن تثور الأحقاد في النفوس أو تغمر البغضاء القلوب، وهو يستعين بهذه الآداب الرفيعة قبل أن يستعين بالقانون والتشريع، وإن كان يتخذ من كليهما أداة، لأن السلوك المهذب، والأدب الجميل والمعاملة الطيبة كلها تشيع في جو الحياة الاجتماعية برضى وبشاشة وطمأنينة.

إنه يكره التغنج على العباد والكِبر والخيلاء، وخاصة من الزوج على زوجته أو من الزوجة على زوجها. وقد روى مسلم وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد»**.

والإسلام يلحظ في هذا طبائع النفوس فهي تكره المتكبرين، وتبغض المختالين، وتضيق بالمفتخرين المتباهين، وتحمل القيظ والحنق والتبرم بهؤلاء الناس، ولو لم يقدم لأحد إساءة شخصية، لأن مجرد تظاهرهم على هذا النحو يثير في الآخرين كبريائهم، ويحفزهم إلى الرد عليهم بكرههم والتبرم بهم دون شعور.

وإذا كان الإسلام يكره الكبر والخيلاء فهو يحرم ما يمس بكرامة الإنسان وأحاسيسه، ويلمزه في مشاعره أو قيمه فهو يحرم السخرية لأنه يلحظ أدق مشاعر النفس.

ولا يقف الإسلام عند هذه الآداب بل يدفع إلى استجاشة الود وأحاسيس الألفة، فهو يدعو إلى إشاعة الكلمة الطيبة: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1].

ثم يطلب الإسلام أن يرد مقابلة السيئة بالحسنة فيجيش في جو البيت السعادة والطمأنينة: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2].

كما يطلب الإسلام الصفح عن الإساءة، وضبط النفس عند الغضب

(١) سورة الأسراء، الآية: ٥٣.
(٢) سورة فصلت: الآية: ٣٤.

وجهادها لا لتضغن وتحقد، ولكن لتعفو وتغفر؛ ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[(١)]. وقد جعل الإسلام العشرة بالمعروف فريضة على الرجال - حتى في حالة كراهية الزوج لزوجته ما لم تصبح العشرة متعذرة - ونسم في هذه الحالة نسمة الرجاء في غيب الله وفي علم الله؛ كي لا يطاوع المرء انفعاله الأول، فيثبت وشيجة الزوجة العزيزة. فما يدريه، لعل هنالك خيراً فيما يكره، هو لا يدريه، خيراً مخبوءاً كامناً، لعله إن كظم انفعاله واستبقى زوجه سيلاقيه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[(٢)].

وهذه اللمسة، تعلق النفس بالله، وتهدئ من فورة الغضب، وتفثأ من حدة الكره، حتى يعاود الإنسان نفسه في هدوء؛ وحتى لا تكون العلاقة الزوجية ريشة في مهب الرياح، فهي مربوطة العرى بالعروة الوثقى، العروة الدائمة، العروة التي تربط بين قلب المؤمن وربه، وهي أوثق العرى وأبقاها.

والإسلام الذي ينظر إلى البيت بوصفه سكناً وأمناً وسلاماً، وينظر إلى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنساً، ويقيم هذه الآصرة على الاختيار المطلق كي تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب.. هو الإسلام ذاته الذي يقول للأزواج: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. فإن كرهتموهن، أي لدمامة أو سوء خُلق من غير ارتكاب فاحشة أو نشوز، فهذا يندب فيه إلى الاحتمال. يقول القرطبي: ومن هذا المعنى ما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خُلقاً رضي منها آخر**» والمعنى: أي لا يبغضها بغضاً كلياً يحمله على فراقها، أي لا ينبغي له ذلك بل يغفر سيئتها لحسنتها ويتغاضى عما يكره لما يحب. يقول ذلك كي يستأني بعقدة الزوجية فلا تفصم لأول خاطر، وكي يستمسك بعقدة الزوجية فلا تنفك لأول نزوة، وكي يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جديتها فلا يجعلها عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة، وحماقة الميل

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٩.

الطائر هنا وهناك... وما أعظم قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل أراد أن يطلق زوجه «لأنه لا يحبها»: ويحك! ألم تبنَ البيوت إلا على الحب؟ فأين الرعاية وأين التذمم؟»...

وما أتفقه الكلام الرخيص الذي ينعق به المتحذلقون باسم الحب وهم يعنون به نزوة العاطفة المتقلبة، التي يبيحون باسمها انفصال الزوجين وتحطيم المؤسسة الزوجية بل خيانة الزوجة لزوجها! أليست لا تحبه؟ وخيانة الزوج لزوجته! أليس أنه لا يحبها؟! وما يهجس في هذه النفوس التافهة الصغيرة معنى أكبر من نزوة العاطفة الصغيرة المتقلبة، ونزوة الميل الحيواني المسعور، ومن المؤكد أنه لا يخطر لهم أن في الحياة من المروءة والنبل والتحمل والاحتمال، ما هو أكبر وأعظم من هذا الذي يتشدقون به في تصور هابط هزيل، ومن المؤكد طبعاً أنه لا يخطر لهم خاطر لذكر الله، فهم بعيدون عنه في جاهليتهم المزوَّقة فما تستشعر قلوبهم ما يقوله الله للمؤمنين: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

إن العقيدة الإيمانية هي وحدها التي ترفع النفوس، وترفع الاهتمامات، وترفع الحياة الإنسانية عن نزوة البهيمية، وطمع التاجر، وتفاهة الفارغ! فإذا تبين بعد الصبر والتحمل والمحاولة والرجاء أن الحياة غير مستطاعة، وأنه لا بد من الانفصال واستبدال الزوج مكان زوج، فعندئذ تنطلق المرأة بما أخذت من صداق وما ورثت من مال، لا يجوز استرداد شيء منه، ولو كان قنطاراً من ذهب. فأخْذ شيء منه إثم واضح، ومنكر لا شبهة فيه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[2]. ومن ثم لمسة وجدانية عميقة، وظل من ظلال الحياة الزوجية وريف، في تعبير موح عجيب: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٢٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ٢١.

ويدع الفعل: «أفضى» بلا مفعول محدد. يدع اللفظه مطلقاً، يشع كل معانيه، ويلقي كل ظلاله ويسكب كل إيحاءاته. ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته، بل يشمل العواطف والمشاعر، والوجدانات والتصورات، والأسرار والهموم، والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب. يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتها فترة من الزمان... وفي كل اختلاجة حب إفضاء، وفي كل نظرة إفضاء، وفي كل لمسة جسم إفضاء، وفي كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء، وفي كل تفكر في حاضر أو مستقبل إفضاء، وفي كل شوق إلى خلف إفضاء، وفي كل التقاء في وليد إفضاء...

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداد والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحي العجيب... فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادي الصغير، ويخجل الرجل أن يطلب بعض ما دفع، وهو يستعرض في خياله وفي وجدانه ذلك الحشد من صور الماضي، وذكريات العشرة في لحظة الفراق الأسيف! ثم يضم إلى ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر عاملاً آخر، من لون آخر: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾. هو ميثاق النكاح، باسم الله، وعلى سنة الله... وهو ميثاق غليظ لا يستهين بحرمته قلب مؤمن وهو يخاطب الذين آمنوا، ويدعوهم بهذه الصفة أن يحترموا هذا الميثاق الغليظ.

والحياة الزوجية نعمة ومودة ورحمة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(١)].

والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين؛ وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة. ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

خلقت لهم أنفسهم أزواجاً، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر، وجعلت في تلك الصلة سكناً للنفس والعصب، وراحة للجسم والقلب واستقراراً للحياة والمعاش، وأنساً للأرواح والضمائر واطمئناناً للرجل والمرأة على السواء.

والتعبير القرآني اللطيف الرقيق يصور هذه العلاقة تصويراً موحياً، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس ولتسكنوا إليها «... ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾»...

إنها حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر وملبياً لحاجته الفطرية، نفسية وعقلية وجسدية. بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار، ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودة والرحمة، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة تتمثل في جيل جديد.

إن الرجل في حاجة إلى امرأة، والمرأة في حاجة إلى الرجل، لشيء آخر غير ضرورة الجسد ودفعة الغريزة، إن كلاً منهما ليجد عند الآخر وفي رحابه مشاعر نفسية: الألفة والحنان، والود، والتعاطف، مشاعر لا يجدها في أي مكان آخر. لا يجدها الرجل - كاملة - عند الرجل، ولا المرأة عند المرأة، إلا في حالات الشذوذ. وهذه المشاعر كلها لا تستقيم مع الطفرات الهائجة والتيارات المتحولة لأنها بطبيعتها في حاجة إلى الأمن والاستقرار.

إن كل فرد من أحد الجنسين في حاجة إلى فروق الجنس الآخر يلقي إليه نفسه كلها، مشاعرها وأفكارها، ويكشف له عن كل أسراره الدفينة، ويتجاوب معه ويتعاطف ويجد منه حافزاً وعوناً لمواجهة الحياة وتبعاتها المختلفة، وإن الدنيا كلها لتنفتح لقلبين متحابين متآلفين، ولا تنفتح لقلب واحد، محروم من الحب والعطف، مقطوع عن الألفة الندية، ولو كان أكبر قلب لأعظم إنسان، بل هو لن يكون قلباً كبيراً، وهو محروم من هذا الغذاء الشغيف.

تلك وقائع قد يفتنّ الشعر في تصويرها في عالم المثل والأحلام. ولكنها بغير شعر ولا فن، وقائع عملية تشهد بصحتها الحياة كلها منذ فجرها إلى اليوم.

فالاستقرار العاطفي إذن حاجة نفسية للرجل والمرأة لا يغني عنها كل متعة الجسد وكل حرية الاقتصاد. ولا يتحقق إلا في أسرة وبيت... والحياة عادة... فإذا لم يطمئن الرجل إلى المرأة... أو المرأة إلى الرجل... ويلقي كل فرد إلى صاحبه كل نفسه ومشاعره وأحاسيسه، كما يلقي إليه بجسده، فلن يجد السعادة في الزواج.

إن كل تجربة وكل معاملة وكل كلمة تترك أثرها العميق وخاصة في نفس المرأة - مهما نسيت في الظاهر - وهذه الآثار المختفية في اللاشعور توجه حياة الإنسان دون وعي منه، فتؤثر في سعادته ولو خيل إليه أن يعيش بنفسه كلها في اللحظة الحاضرة. والكلمة لها أثر غائر في النفس الإنسانية والله سبحانه يوجه عباده المؤمنين أن يقولوا الكلمة الطيبة وينطقوا دائماً بالحسنى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1]. على وجه الإطلاق وفي كل مجال فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة... فالشيطان ينزغ بين الزوجين بالكلمة الخشنة تفلت، وبالرد السيئ يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة والعداء... والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، تندّي جفافها، وتجمعها على الود الكريم.

والشيطان يتلمس سقطات الفم وعثرات اللسان، فيغري بها العداوة والبغضاء... والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق وتحفظ هذا الحرم آمناً من نزعاته ونفثاته.

وما قيمة الحياة التي يحياها كل شخص مع شريكه بجسده، بينما عواطفه

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

ومشاعره وأحاسيسه تحوم في الآفاق بوعي أو بغير وعي. وأي سعادة في تلك الحياة الزائفة والعواطف الموزعة.

إن الواقع والتجربة تبينان بوضوح أن إسعاد الناس ليس بإراحة الأجسام وإنما بطمأنينة القلوب. وهذه السحابة الخيرة من الحب والسعادة لتلقي بمائها الغزير على الأطفال الذين يشبون ويحيون بهذه الرعاية الصالحة. وفي هذا المحضن فقط يمكن أن نجد الطفل السعيد والطفولة تجد هنا الأمن النفسي والعاطفي... وفي هذه الأسرة تتربى الطفولة على مشاعر الحب فيتحقق بذلك أكبر قسطٍ من السعادة لهؤلاء الأطفال أنفسهم، ولآبائهم من قبل، وهم في الوقت ذاته نواة المجتمع المستقبلية، منهم يتكون الجيل الجديد الذي يحكم المجتمع.

والحب هو ذلك التعبير الودود الحاني المشرق المنير الذي يشرق على البيت الجو اللطيف الوضيء... ومن الحب تشيع في البيت السماحة والبشر والطلاقة فإذا هي أسرة متضامنة والله سبحانه يصور هذه العلاقة الزوجية: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1]، تصوير بارع لعلاقة الجسد وعلاقة الروح في آن. فاللباس ألصق شيء ببدن الإنسان، وهو الستر الذي يستتر به، وهو في الوقت ذاته مفصّل على قده لا ينقص ولا يزيد. والرجل والمرأة ألصق شيء بعضهما ببعض: يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة، وفي لحظة يذوب كل منهما في الآخر فلا تعرف لها حدود، وهما أبداً يهفوان إلى هذا الاتصال الوثيق الذي يشبه اتحاد اللباس بلابسه.

ثم هما ستر، كل واحد للآخر. فهما من الناحية الجسدية ستر وصيانة، وهما على الدوام ستر روحي ونفسي. فليس أحد أستر لأحد من الزوجين المتآلفين، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره أن ينكشف منها شيء فتنهبه الأفواه والعيون. وهما كذلك وقاية تغني كل منهما عن الفاحشة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

وأعمال السوء، كما يقي الثوب لابسه من أذى الهاجرة والزمهرير. وهما بعد ذلك كاللباس في تفصيله مضبوطاً على القد يلبسه صاحبه فيستريح إليه، ويتحرك نشيطاً في محيطه، ويكتسب به زينة وجمالاً تعجب صاحبها وتعجب الناظرين، فليس أبدع من تصوير هذه المعاني كلها في تشبيه واحد شامل عميق.

وأخيراً يجب أن نبين بوضوح أمر نفسي يغيب عن كثير من النفوس؛ إن الزواج هو الذي يحمي الإنسان من السعار الجنسي، فهو يكسر من حدة الشهوة المجنونة لأن الإنسان يزهد بفطرته من كل شيء يملكه فإذا اطمأن الزوج والزوجة بعد فترة التعطش الأولى إلى أن كلاً منهما يملك الآخر في كل لحظة يريدها لم يعد هناك دافع إلى التشهي العنيف والسعار الملهوف.

ولكن هذا ليس معناه أن تموت الشهوة أو تتلبد نهائياً بالزواج، فلحكمةٍ عليا جُعلت شهوة الجنس من الحدة والعنف بحيث لا تخمد طالما كانت المقدرة الصحيحة للفرد صالحة لأداء الغرض المطلوب وذلك لكي يستمر النسل، وتستمر الحياة على ظهر الأرض.

وفي الزواج تنتهي المتعة إلى الرضا والارتواء!!. ثم يأخذ الزواج أبعاده فهو وُدٌّ... وحبٌّ... وسَكَنٌ... وطمأنينةٌ... ورحمةٌ... وهنا لا بد من التنويه إلى «قِوَامة الرجل على المرأة» على أنها قِوامةُ رعايةٍ وعنايةٍ ومسؤولية!..

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1]. فهم يقومون بما تستلزمه الحياة من الشؤون الخارجية المعقدة، التي تتطلب مجهوداً، وجعل للمرأة القيام بالأمور التي تستطيعها بمهارة، كتربية الأطفال، وإعداد ملابسهم، وتغذيتهم، واستحمامهم، ولم يمنعها من الدراسة والقيام بالعمل خارج البيت، ما دامت قادرة على ذلك العمل محافظة على كرامتها، قائمة بواجبها. فالرجل رئيس الأسرة، ومدير شؤونها.

وإن جعل الرجل قيِّماً على المرأة لا يمس عزتها وشخصيتها واحترامها، بل

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

يجعلها عزيزة مصونة كريمة غير ممتهنة، قال ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[1]. فللنساء من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات، ولكن للرجال درجة زائدة على النساء؛ هي قوامتهم عليهن؛ لأن الرجال مطالبون بالإنفاق على الأسرة، والعمل بكل وسيلة لإسعادها والتكفل بمطالبها.

والحياة معقدة تتطلب التعاون بين الرجل والمرأة، فكلاهما يجب أن يسعى ويعمل لإسعاد الآخر، وإذا قام الرجل بواجبه، وقامت الزوجة بواجبها، وتعاونا معاً على الحياة استطاعا أن يكوّنا بيتاً سعيداً، وأسرة سعيدة، هانئة راضية، متعاونة متآلفة.

ومما يدل على منزلة المرأة في الإسلام وإكرامها والمحافظة على شعورها أن أم هانئ قد استجار بها في الحرب عدو من أعداء المسلمين، فأجارته، فجاء علي بن أبي طالب يريد وجهه، فمنعت علياً من قتله، واحتكمت إلى الرسول ﷺ، فقال الرسول ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**». أي أنقذنا من تعهدت بإنقاذه، وحافظ الرسول على عهدها، ووفى بما وعدت به، مع أن من تعهدته كان عدواً من الكفار، وهذا من النبل في الإسلام.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.